مثال البلجيك . في نجاح الكاثوليك

تلم الكاتب البارع جان افندي جلران البغدادي

من جملة السهام التي يصوبها الى الكاثوليك بعض مماحكي الكتّاب الذين جعلوا ديدنهم التثريب والتشنيع على كنيسة المسيح هي المقابلة بين بعض الشعوب الكاثوليكيّة والبروتستانيّة والمقايسة بين أحوالها التدبيريّة . فهاجوا وماجوا ورفعوا عقيرة الظافر الناعم وقالوا لما كانت البلاد البروتستانيّة لا يزال تقدُّمها على قدم وساق . قد ملأت تجارتها الامصار والآفاق . فبعكس ذلك الامم الكاثوليكيّة فانك تراها آخذةً بالانحطاط ونجم سعدها قارب الاضمحلاق

. قد نسج عنكبوت متسطقيهم هذه السفسطة على المقابلة بين اسبانية والبرتوغال وايطالية وبين انكلترة والمانية فحكموا حكماً باتاً بان الممالك الكاثوليكية قد حُرمت السعادة الزمنيّة التي تتمتّع بها البلاد غير الكاثوليكية ونسوا السبب ذلك الى المذهب المتمسك به كل من البلادين وحلفوا يميناً جزماً ان الكثلكة هي الداعي الوحيد لسقوط العنصر اللاتيني بيد ان الثروة والسلطان الحاصلة عليها الامة الانكلوسكسونيّة هما نتيجة تمأتيها بمعتقدها الدينيّ . فلا جرم ان القياس الذي يُبنى على هذه المقدّمات تكون نتيجتهُ بحكم العقل ان نفوذ الكنيسة الكاثوليكيّة وتمالسها هي مضرّة ماديًا لسعادة الشعوب التي يسوسها ويسودها الكاثوليك وان النجاح الزمني الذي تمتاز به الامصار البروتستانية لم يكن فقط مدعاة للافتخار والمباهاة بل انما هو علامة جلية عن البركات التي لا يزال الله يغطرها على كنيسة الاصلاح

فمع تسليمنا بان بعض البلاد البروتستانية قد فاقت في هذه الايام البلاد الكاثوليكيّة التي تضاهيها في التجارة والصناعة لا نرى وجهاً للمطالعة على اتخاذ هذا الامر برهاناً يُحتجّ بهِ على الكنيسة المقدسة الكاثوليكيّة وسلاحاً يُشهر عليها . اما غنى الافراد او الشعوب وتقدمهم في الهيئة الاجتماعية فلا يسعنا ان نقابلها دائماً كدليل انعام خصوصي لهم من الله . على ان الذين قد تمسّكوا شديداً وقويًا بما تعلّمهُ الكتب المقدسة لا يسوغ لهم المجاهرة بان تملُّك الثروة الارضية هو قاعدة قد وضعت اساسها يدُ الهية . فان فاديتا

لمَّا توثَّل الجبل ليعظ الناس لم نسمع من فمه الطاهر كلمة استحسان او بركة للتاجر المثري او المالي الناجح. فلا لوم ولا تثريب على الكنيسة الكاثوليكية في هذا الشأن بل ان عدم وصول تابعيها الشأو الذي بلغت اليه اصحاب بقيَّة المذاهب من السلطة الدينارية مما لا يبخس شرفها ولا يخلّ بحقوق تعيتها الربَّاني حاميةً ومعلِّمة للحقائق الدينية والخلاصية. أفهل خطر على بال اعداء الكنيسة بان يجاروا من واجبات وظيفتها معاضدة اشغال شركات المعادن وبناء سكك الحديد واقامة المعامل وصنع المراكب التجاريَّة وتمهيد طرق التجارة وتشجيع امتداد التمدن والتجارة بتلك الاساحة الغدَّارة. وطنين المدافع الفتَّارة. لقد خابوا سواء الطريق. ان الكنيسة الكاثوليكية قد دعاها الله لغايات اسمى وأسنى من ترقية الصناعات وتشجيعها التي لا يتوقف عليها الَّا نجاح الامم المادي. قد وضعها الله لترفع بدرجة الانسان الادبية والروحيَّة. ولا ينكر علينا التاريخ شهادة الحق بانها على ممر القرون قد قامت بأعباء مهامّ هذه الوظيفة العالية احسن قيام ونالت من التوفيق والنجاح ما لا يجحده الَّا من اصابهُ رمد العقل

*

غير انهُ لا محل للتوهُّم هنا انهُ يوجد ضرورةً ادنى تنافر بين اتباع أوامر الكثلكة وبين اكتساب الغنى. فاسبانيا والبرتوغال اللتان يذوح البروتستان على سوء مصيرهما قد كانتا يوماً غنيَّتين قديرتين. ولم تبلغا الشأو السحيق من العظمة والمجد الَّا في الزمان الذي كان ايمان اهلهما متقدًا يومَ كان للكنيسة فيها القدر المعلَّى وحيث كان من الواجبات الدينيَّة ركز الصليب المقدس اينما خفق العلم الوطني. فاذا رأينا اليوم هاتين المملكتين قد انحطَّتا منزلةً في السياسة والتجارة فلا يسوغ لنا ان ننسب هذه الحال الَّا الى أسباب ليس من شأننا ان نتقصَّاها. على اننا نقدر ان نقول بوجه العموم ان استياء أحوال البلاد وتحوُّلها من السرَّاء الى الضرَّاء يصاقب خوار ايمان سكَّانها

ولا يخفى على من لهُ إلمام بالتاريخ ان انكلترة كانت زمناً طويلاً قبل الاصلاح عظيمة وناجحة (وازدياد عدد الكاثوليك فيها في هذه الايام لا نراهُ مضرًّا بسعادتها الزمنيَّة) وان بروسية البروتستانيَّة رغماً عن تشرُّبها مبادئ لوتاروس ما انفكَّت مدَّة قرون قد حلَّ الفقر بين ظهرانيها حتى سار به المثل

*

ولكن دعنا يا صاح من هذه الاقيسة التي تستند مقدماتها على اتاني الزمن الغابر. فان من دأب اعدائنا ان ينكروا كل حقيقة لا تنحصر تحت قبضة الوقت الحاضر. ولنأت ببرهان لا تقلق راحتهُ زعجرةُ غيظهم ولا تُقوّض أُسسهُ عواصف حنقهم وسخطهم فهذه بلاد البلجيك مع صغرها قد بارزت اشدّ البراز كلًّا من انكلترة والمانية في ميدان الصنائع وبرّزتها كلّ التبريز فاضحت حاصلاتها ضيفًا كريمًا في سائر الاسواق. ومن اتاح لهُ الحظّ ان يزور هذه الامصار لا يتمالك من التعجّب والاندهال لما يشاهدهُ من رقّه حال اهلها. واذا همّ بالتنقيب عن احوالها التدبيريّة رأى ان هذا الرغد لم يكن نتيجة زهو وإفراط بل تحصّل سعادة حقيقيّة ونجاح اكيد. وبلاد البلجيك كاثوليكيّة محضة ومن نحو ست عشرة سنة لا يزال زمام امورها وشؤونها بيد حكومة كاثوليكية. ولم نعرف لتاريخ البلجيك زمن ترقّ ونجاح فيه رتع سكّانها في بحبوحة الهناء واليسار مثلما وصلت اليه في هذه السنين. وما هو جدير بالعجب ان تجارة البلجيك قد حازت قصب السبق على باقي الدول بالنسبة الى عدد سكّانها. فان مبلغ تجارتها الخارجيّة قد تاهز سنة ١٨٩٨ ١٥٣,٧١٤,٠٠٠ ليرة انكليزيّة اعني بنسبة ٢٢,٥٦٠ ليرة عن كلّ الف نسمة وفي السنة المذكورة كانت هذه النسبة في انكلترة ١٩,٢٠٠ ليرة وفي المانية ٨,٤٠٠ ليرة عن كل الف نسمة. فهذه الارقام تنطق بافصح لسان عن نجاح هذه المملكة. ومنذ سنة ١٨٨١ حيث صار زمام امورها الى يد الكاثوليك الى اليوم ترقت تجارتها ما ينيف الاثنين والخمسين في المئة. وفي المدة عينها لم تزد تجارة الانكليز الّا عشرين في المئة. امّا المانية فقد تعدّت هذه الكمية لان ترقيها كان ابتداؤه من سنة ١٨٧٠ بيد ان البلجيك اخذت بالنهوض قبل ذلك اي منذ انقلاب سنة ١٨٣٠

وما يزيد إثراء هذا الشعب هو ان المبالغ المودعة في صناديق الاقتصاد والتوفير الراجعة للحكومة كانت سنة ١٨٨٥ ٧,٦٠٠,٠٠٠ ليرة انكليزيّة وفي ختام سنة ١٨٩٧ ٢١,٣٠٠,٠٠٠ ليرة انكليزيّة. على ان هذه المستودعات لا تحتوي الّا على توفيرات العملة والطبقة السفلى من الناس وذلك من اسمى الادلّة على غنى أُمّة

هذا ما احببتُ ايراده جلاء لغياهب الانخداع عن عقول السذّج ليعلو الحقّ ويزهق الباطل